٧٣ الإمام الشعرانى صاحب الطبقات الكبرى

لكل دين نزعة إلى الظاهر تمثلها شرائعه وعباداته وشعائره المحسوسة، ونزعة أخرى إلى الباطن، أى إلى المضامين العميقة الروحية التى يحجبها الحِسّ.

هكذا أشار إلى هاتين النزعتين، واتفق على تواجدهما الفلاسفة من الأجانب والمسلمين.. والتصوف الإسلامى فى حقيقة أمره محاولة لتجاوز الشعائر والطقوس المحسوسة لأى دين، لكى تواجه النفس فى أعماقها شحنات روحية تربطها بالجهد الخلاَّق، وتدلف بها فى بحار أنوار القدس الغامرة لتسبح فى ينبوع النور، وتنعم بالتواجد فى جلال الحضرة الإلهية كما يقول الصوفية.

ولقد أثبت مؤرخو التصوف، وعلماء الدين وفلاسفته، أن التصوف ظاهرة عالمية ترتبط بكل دين إذا سلك المعتنقون له طريق المجاهدة الروحية. ولكن جمهرة علماء النفس يرون فى هؤلاء المتصوفة صنف من المرضى النفسيين، وأن الأعراض التى تظهر عليهم، وحالة التوتر المُصاحِبَة للجذب الصوفى هى بعينها نفس أعراض المرضى النفسيين.. ويرد على هذا الرأى الدكتور محمد على أبو ريان، أستاذ الفلسفة وتاريخها بكلية الآداب بكتابه «الحركة الصوفية فى الإسلام» قائلا: «يجب أن نفطن إلى مغالطة علماء النفس التى تنطوى على هذا الحكم المتسرع، وهو أنه لا يكفى أن تتشابه الأعراض الخارجية فى هاتين الحالتين (حالة التصوف بما فيه من جذب، وحالة المرض النفسى) حتى نحكم بأنهما حالة واحدة. ذلك أن ثمة فرقاً أساسياً بينهما، وهو أنه بينما يستطيع الصوفى بقدرته الذاتية العودة إلى حال الصحو أو الحالة الطبيعية بعد الجذب الصوفى، نجد أن المريض النفسى يعجز عن شفاء نفسه بنفسه، وقد يستحيل عليه أن يعود إلى الحالة الطبيعية العادية بإرادته الذاتية».

ومن هنا نرى أن التصوف حقيقة اعترف بها العلماء والمؤرخون حتى وإن اختلفوا فى بعض أشكاله وتفاصيله، ونتائجه الخاصة بالفرد، أو نتائجه العامة بالنسبة للمجتمع.

وإذا كان التصوف حقيقة لها وجودها ما وجدت الأديان، فإن هناك من اهتم برصدها وتحليلها فكرياً، وتقصى أخبارها وتسجيلها تاريخياً.. ومن الطائفة الثانية الإمام عبد الوهاب الشعرانى، صاحب كتاب الطبقات الكبرى التى عنيت بالتأريخ لرجال التصوف بشكل يجعل أى باحث فى هذا الجانب لا غِنى له عن الرجوع إلى هذه الطبقات، حتى يمكنه التعرف على الكثيرين من المتصوفة وأحوالهم.

ولم يكن كتاب الطبقات الكبرى الذى اشتهر به الإمام الشعرانى هو الكتاب الوحيد الذى تركه، بل إن لهذا الإمام الجليل عدداً من الكتب التى أثرت المكتبة الإسلامية، حيث يذكر على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية أنه رأى منها سبعين كتابا، منها على سبيل المثال لا الحصر كتب: «الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء الصوفية»، و «الأنوار القدسية فى معرفة آداب الصوفية»، و«بهجة النفوس والأسماع والأحداق فيما تميز به القوم من الآداب والأخلاق»، و«درر الغواص من فتاوى الشيخ على الخواص»، و«القواعد الكشفية فى الصفات الإلهية»، و«الكبريت الأحمر فى علوم الشيخ الأكبر»، و«المنن الكبرى»، و«لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية»، و«مدارك السالكين إلى رسوم طريق العارفين»، و«مشارق الأنوار»، و«المنح السنية»، و«اليواقيت والجواهر فى عقائد الأكابر»..

وغيرها من كتب قال عنها صاحبها الإمام الشعرانى بأن الذى دعاه إلى كتابتها هى الحالة المتردية التى كان عليها التصوف والصوفية فى زمنة، بل وينعى ويعتب على مَنْ توفى من أكابر المشايخ أنهم لم يهتموا بتسجيل فضل التصوف قائلا: «فلما ذهبوا زالت حرمة الطريق وأهلها، وصار الناس يسخرون بأحدهم، ويقولون لبعضهم: ما دريتم ما جرى؟ فلان آخر عمل شيخاً!. كأنهم لا يسلمون له ما يدعيه لما هو عليه من محبة الدنيا وشهواتها، والتلذذ بمطامعها وملابسها ومناكحها والسعى على تحصليها..»

ويحذر الإمام الشعرانى من قراءة كتب العارفين، إلا لعالم أو مَنْ سلك طريق القوم، وأما من لم يكن كذلك فلا ينبغى له قراءة شئ منها، خوفاً عليه من إدخال الشبه التى لا يكاد يفطن أن يخرج منها. ومما يقع فيه كثير من الناس قولهم: «يامَنْ يرانا ولا نراه»، أو «ما فى الوجود إلا الله» ونحو ذلك مما لا يجوز التلفظ به، لما يورثه من الغموض والإبهام عند العوام خاصة. وكذلك لا يجوز إجماعاً ـ عند أهل السنة ـ إرادة ذاته سبحانه وتعالى بقول بعضهم شعراً:

أنا من أهوى، ومن أهوى أنا نحن روحان حَلَلْنَا بَدَنَا

أو قولهم:

تمازجت الحقائق بالمعانى فصرنا واحداً رُوحاً ومعنى

ولهذا فقد دافع الإمام الشعرانى عن محيى الدين بن عربى وأوضح ما يريد أو بهدف إليه من أقواله، مثل قول ابن عربى: «حدثنى ربى عن قلبى أو حدثنى ربى عن نفسه بإرتفاع الوسائط» قائلا: ليس مراد أو هدف ابن عربى أن الله سبحانه وتعالى كلمه كما كلم الأنبياء. وإنما مراده أن يقول: إن الله سبحانه وتعالى يلهمه على لسان ملك الإلهام بتعريف بعض الأحوال.

ويذكر الدكتور عبد المنعم الحفنى فى موسوعته الصوفية أن كتاب المنن الكبرى للشعرانى من أفضل وأشرف كتب الأخلاق، فقد وضح فيه الآداب الإسلامية، وأن كتابه لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية هو طرح لمعتقداته، مما يمكن أن يكون هُدًى ونبراسا ومثلاً حياً للصوفى فى الأخلاق، باعتبار أن الرسول ﷺ هو المثل الأعلى لكل مسلمة، حيث يقول الشعرانى فى مقدمة هذا الكتاب: هذا كتاب نفيس لم يسبقنى أحد إلى وضع مثله، الباعث لى على تأليفه ما رأيته من تنافس الإخوان على ما ينقصهم عن دنياهم. ولم أَرَ أحداً يفتش على ما ينقصه من أمور دينه». وفى سبيل الغاية نفسها ألف كتابَ الأنوار القدسية، وخصصه لتوضيح المناهج الصوفية، والصلات التى تربط الشيخ والمريد بالآداب ككل.

وقد فضح الإمام الشعرانى الدجالين والمُدَّعين والمشعوذين فى كتابه الأشهر «الطبقات الكبرى». ورأى فيهم البلاء والنكبة على الإسلام حين تعقب شيوخ

عهده، مظهراً جهلهم وسوء أدبهم. والمرء يعجب لإدراج الشعرانى لهؤلاء الذين انتقدهم مع تراجم السلف الصالح، وسرعان ما يزول العجب حين يكتشف أن رغبة الشعرانى فى ذلك هى إتاحة المقارنة بين هؤلاء المدعين وأولئك من السلف الصالح.

والغريب أن الإمام عبد الوهاب الشعرانى من أصل مغربى فعائلته ـ كما تذكر المصادر ـ من تلمسان، وأن الذى جعل أجداده يغادرون تلمسان إلى مصر نبوءة من الصوفى الأكبر أبو مدين التلمسانى، فغادروا تلمسان إلى صعيد مصر. وغادروا الصعيد ليستقروا بالمنوفية، وبالتحديد فى قرية «ساقية أبو شعرة» التى استوطنوها، وولد فيها حفيدهم الإمام عبد الوهاب الشعرانى صاحب الطبقات الكبرى عام ٨٩٨ هـ. وبعد أن توفى وَالِدَاهُ وتركاه يتيماً ليس له إلا الله نصيراً ـ كما يقول ـ سافر إلى القاهرة عام ٩١٠ هـ ليقيم فيها بمسجد الغمرى مدة سبعة عشر عاماً يتعلم ويعلم، يتهجد ويتعبد. واتصل بصفوة العلماء وقتئذ، وفى مقدمتهم القاضى زكريا الأنصارى، والمؤرخ جلال الدين السيوطى.

أما كيف اندمج الشعرانى المريد الشاب القروى، الذى يعد من وجوه عديدة شخصية نموذجية فريدة فى الوسط المدنى بالقاهرة. فهذا ما فصله المستشرق الفرنسى الكبير «ريجيس بلاشير» فى حديثه عنه فى دراسته عن تأسيس القاهرة، ومن جملة ما قاله عن الشعرانى: «ولا ريب فى أن غلبة الطابع الريفى على الأحياء المتطرفة من المدينة، وتوثق العلاقات بين المدينة والريف، تدعمهما شبكة من الروابط الإنسانية والدينية ذات صبغة شاذلية (نسبة إلى الإمام الشاذلى).. لاريب أن هذا كله قد أتاح للشعرانى التكيف والاندماج فى القاهرة».

ثم يحدثنا هذا المستشرق الفرنسى بعد ذلك عن الشعرانى وشيوخه، وأهمهم الشيخ على الخَوَّاص، وأستاذه إبراهيم المتبولى، وكلا الرجلين من أتباع الطريقة الشاذلية المعتدلة، التى تؤمن بضرورة العمل اليدوى كوسيلة لخلق التوازن، مع التأمل والتفكير. كما تدعو أنصارها ممارسة الصوفية إلى مزاولة حرفة تضمن لهم مكاناً فى المجتمع وقتئذ، وتقيهم من أن يصبحوا عالة عليه.

وهكذا كان للشيخ على الخواص دكان صغير يبيع فيه الزيت، كما كان يكسب قوته من نسج الخوص. واشتغل أستاذه إبراهيم المتبولى زمناً ببيع الحمص، أما تلميذه عبد الوهاب الشعرانى نفسه فقد اشتغل بالحياكة. وهكذا ـ كما يقرر هذا المستشرق ـ نلاحظ لدى الجميع احتراماً للعمل الذى اختارته لهم مشيئة الله، وللنظام الاجتماعى الذى ارتضوه لأنفسهم.. انتظاراً لنظام آخر يكون من نصيبهم فى الآخرة..».

وهكذا كان الإمام الشعرانى عالماً محققاً له جهوده الصادقة فى الدعوة إلى الله تعالى. حتى توفى فى عام ٩٧٢ هـ.

* * *